اللغة والمجتمع الإنساني

أحمد عبد الرحيم السايح

مشيخة جامعة الازهر

اللغات هي : مجموعة من الرموز الاصطلاحية من حيث المفردات ، ومجموعة من القواعد النحويةالاتفاقية من حيث ضبط تلك المفردات . فهي لهذا لا تخضع لمنطق عقلي عام ، لانها اصطلاحية اتفاقية تقليدية موروثة او بتعبير آخر : ان اللغة من الامور الاعتبارية والامور الاعتبارية لا يشترط فيها ان تكون عامة بين الناس جميعا ، الا اذا اتفقوا على ما هو معتبر ، اما اذا فقد عنصر الاتفاق اختلف الناس فيما هو معتبر .

وحيث ان اللغة من الامور الاصطلاحية الاتفاقية التقليدية غير المتفق عليها بين الناس ، لهذا اختلفت اللغات فكان لكل لغة مفرداتها الخاصة بها ، وقواعدها ونظمها ، واللغة لشدة التاثر بها والتطبع عليها تبدو لمتكلميها وكانها من الامور الطبيعية ، ويبدو ما يخالفها شاذا غريبا لا يقبلونه الا في حدود معينة (1) .

النمو والتطور :

حياة الانسان لا تستقر على حال : علومه تتطور وافكاره تتسع وحضارته تتقدم وحياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي الاخرى تتطور وتتقدم وتتعقد ، وهذا يعني انه يجد في حياة الانسان الجديد من المعاني التي تتطلب وضع الفاظ لها . لهذا يلجا الانسان الى لغته بمفرداتها وقواعدها يستعين بها ، يضع لهذه المعاني الفاظا او ينقل الفاظا من معانيها التي وضعت لها ، الى هذه المعاني الجديدة لتدل عليها فان لم يجد الانسان في لغته ما يسعفه لجا الى الاقتراض من لغات اخرى وقد يصقل ما يقترض بمصقل لغته لينتظم فيها وكانه منها ، ولا يقتصر الامر على الالفاظ بل يتعداها الى الاساليب فهي الاخرى تنمو وتتطور ، فاذاباساليب لا تعرفها اللغة في زمانها السابق تدخل في زمان لاحق ، كل ذلك لان حياة الانسان تنمو وتتطور واللغة اداة ووسيلة فلابد لها من ان تساير تطور الانسان والا ماتت لان حياتها بوفائها .

والذي يرجع منا الى صورته وهو طفل ، وصورته وهو شيخ طاعن في السن ، وصورته وهو شاب او صبي، او كهل ، يرى التغير والتبدل الذي اصاب كيانه واضحا فيما تنطق به الصور ، ولكن الانسان لا يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل بل يلحظ نفسه وهو في يومه ، ويعلق في ذهنه عن امسه بعضه لا كله ، واللغات شانها شان الانسان : فهي تتطور وتتغير وتتبدل وكل هذا يحدث في البنية اللغوية في الامس الغابر واليوم الماثل .

وعمر اللغة لا يقاس بعمر الانسان ، اذ منها ما بين مولدها وعصرنا ، المئات من السنين فنصفها بانها حديثة وما هي بالحديثة ، واخرى ما بين مولدها وعصرنا الالوف من السنين ونصفها بانها قديمة ، لاننا اذا رجعنا الى اصولها ، او الى اصل الاصول ، كان عمر اللغة المئات من آلاف السنين بل الملايين منها ، فهل يمكن أن يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل في هذا الامتداد الزماني؟ الحقيقة لا ، اما لماذا ؟ فلاسباب :

ان اللغة الام لم تخلف لنا من الآثار ما يدل عليها ، وبتطور الانسان تطورت لغته الى لغات وكان التطور تدريجيا فنسي الانسان امس لغته وعاش حاضرها، فانقرض ما انقرض وعفى الزمن على ما انقرض ، فنسيته الاجيال ، اما بالنسبة لاصول لغات عالمنا الحديث فالتي ولدتها ام وكانت ولادتها حديثة . عرف اصلها اي امها كاللغات المولودة من اللاتينية ، اما ما كانت ولادتها قديمة فقد نسيت امها ومن اللغات ما دونت مفرداتها وقواعدها ونظمها اللغوية في الاسفار ومنها ما خلف امسها آثارا فامكن ان نتبين بعض ـ لا كل ـ صور تطبيقها وتغيرها وتبدلها ومنها ، ما لم يدون في الاسفار ولم يخلف امسها الآثار فلا نعرف عنها الا صورتها الحاضرة ، ان لم تكن قد انقرضت ، ونعود الى لغات العالم التي تحتفظ بصور تغيرها وتبدلها وتطورها ونسال هل تعطي هذه الصور واقعا يطابق واقع اللغة وهي تتطور وتتغير وتتبدل في الامتداد الزماني لهذا التطور والتبدل ؟.

الحقيقة لا : لان هذه الصور نسبية تماما كصورة الشيء لا تعني انها حقيقة الشيء بكل كيانه ومقوماته وصفاته ، فكم من الالفاظ بادت ، وكم من الاساليب عفى عليها الزمن ، وكم من القواعد والنظم لم تصل اليها اجهزة المصور اللغوي فانساها الزمن .

وسؤال آخر يقفز الى الذهن ويتطلب الجواب :

ما هي اسباب النمو والتطور والتبدل والتغير والانقراض في اللغات ؟ والجواب على ذلك اننا نجد اهم تلك الاسباب فيما يأتي :

1 ـ النمو والتطور والتغير والتبدل في حياة الانسان نفسه وهذا يدفعه الى ان يضع لما يجد من جديد الفاظا واساليب ونظما لغوية .

2 ـ نقل الالفاظ الموضوعة للمعاني ، فتطاول الزمان يدعو الى وضع الفاظ جديدة .

3 ـ من المعاني ما يرتبط بعصر من العصور فاذا انقضى العصر لا تكون هذه المعاني من التراث الفكري والحضاري للجيل اللاحق فتهمل ثم تنسى باهمال الفاظها .

4 ـ وعدم وفاء اللغة بحاجة الانسان الى التعبير والتفاهم وحفظ ونقل وتخليد تراثه الفكري والادبي وازاء ذلك يضطر الانسان الى ان يغير ويبدل او يهجر لغته .

5 ـ التحريف والتغيير والتبديل في اللغة قد يستقر في دلالته فيخرج الاصيل حتى ينسى .

6 ـ ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية اتفاقية غير مستقرة لهذا فقد تلد لغات او لهجات ، وقد تستقر هذه اللغات واللهجات المولدة وتهجر اللغة الام .

7 ـ تسرب الدخيل والمولد الى اللغة مع عدم الحاجة اليهما وبمرور الزمان قد يتغلب الدخيل والمولد على الاصيل .

8 ـ تجاوز الام واختلاط الشعوب ، سبب من اسباب تطور اللغة ونموها فتقترض اللغة من لغات الامم والشعوب ما تقترض مما هو ليس موجودا فيها .

9 ـ تعرض الامم للغزوات والنكبات يعرض احيانا الامم المغلوبة الى فقدان لغتها عندما تفرض الامم الغالبة لغتها عليها ، او تتاثر لغة الامم المغلوبة بلغة الامم الغالبة .

10 ـ انقراض الامم والشعوب يؤدي الى انقراض لغتها لان اللغات ترتبط بمتكلميها فاذا انقرضوا انقرضت .

11 ـ تشتت الامة والشعب يؤدي الى تاثر لغتها او لغته بلغات الامم المخالطة مما يؤدي الى مسخ لغة الامة المشتتة .

12 ـ بعض اللغات تمتاز بسهولة قواعدها ومرونة اساليبها ، وهذا قد يدفع بعض الامم الى هجر اناتها اذا كانت قواعدها واساليبها شديدة التعقيد .

نواحي التطور والتغير اللغوي :

1 ـ التبدل الصوتي للحرف والكلمة : وذلك بان يتغير صوت الحرف وعلى سبيل المثال حرف الجيم العربي يلفظ في لبنان وسوريا بصوت يختلف عنه في مصر ، وفيهما عنه في العراق ، وكذلك في مصر نفسها حرف الجيم يلفظ في الصعيد بصوت يختلف عنه في القاهرة ، وكذا حرف القاف والضاد ، او ان يتغير صوت الوحدة اللغوية .

2 ـ توسيع القاعدة اللغوية وذلك بأن يخضع اهل اللسان ما يقترضونه لقواعدهم اللغوية فيجرون عليه ما تجري عليه قاعدة لغتهم او توسيع القاعدة لتشمل الشاذ غير الخاضع لها .

3 ـ اقتراض المفردات : وذلك حين تعجز قواعد اللغة عن الوفاء بوضع مفردات جديدة او لا يكون ذلك عن عجز وانما تكون المفردات الاجنبية قد استقرت بحيث لا يمكن احلال مفردات لغوية موضوعة بموجب القواعد اللغوية للغة .

4 ـ استعارة اساليب او تراكيب لا تعرفها اللغة : ومن امثلة ذلك في اللغة العربية : ذر الرماد في العيون ، وعاش ستة عشر ربيعا ، ووضع المسألة على بساط البحث ، ولا جديد تحت الشمس ، وساد الامن في البلاد .

ومن امثلة ذلك ايضا ، الاصطلاحات الفنية والادارية : كهياة المحكمة وتشكيل المحاكم ، وانعقدت المحاكم ، وتعريفة الرسوم ، واللا سلكي ، واللا نهائي.

5 ـ تبدلات فرعية مختلفة : كالنقل والارتجال والاستعمال المجازي والنحت على غير قياس او سماع .

مقاييس اللغة الحية :

من اللغات ما توصف بانها : حية ، ومنها ما توصف بانها : ميتة ، والميتة هي اللغة التي تشتت الشعب الذي يتكلمها فخالط امما وشعوبا مختلفة اللغات وكان ان مسخت لغة الشعب المشتت ، وقد يطلق وصف الميتة على لغات تحتفظ بشخصيتها وذاتيتها ، ويتكلمها الملايين ، وهذا هو الذي يدعونا الى التساؤل ما هي المقاييس التي يقاس بها كون اللغة حية او ميتة ؟

مما يجاب به على هذا التساؤل : ان العلماء يختلفون في المقاييس التي تعتبر اللغة : لغة حية وللاختلاف اسباب : فمن العلماء من يعتبر المجتمع هو المقياس ، فاللغة التي يرتضيها المجتمع بمفرداتها وقواعدها واساليبها ونظمها ، هي اللغة الحية لان اللغة كما عرفها بعض الباحثين هي وسيلة للتعبير والتفاهم وليست غاية ، وللمجتمع ان يختار الوسيلة التي يرتضيها ، ويضيف العلماء الى ما سبق شرطا آخر اذا توفر في اللغة باضافة الى ارتضاء المجتمع كانت اللغة لغة حية ، وهي ان تكون اللغة سهلة في قواعدها مرنة في اساليبها ونظمها وعلى اساس هذا المقياس : للمجتمع ان يغير ويطور ويبدل في اللغة ما شاء الا في حدود ضيقة كان يجري تاليف وترتيب الكلمات وفق نظام ثابت ليؤدي الكلام المؤلف منها معناه العام .

ان الحياة تتطور وفي تطور مستمر، واللغة ينبغي لها ان تساير هذا ، وهي وسيلة وللمجتمع ان يختار تلك الوسيلة ولا ينبغي لتلك الوسيلة ان تقيد المجتمع وتقف حجر عثرة امام تطوره واحتياجاته .

وبعض العلماء لا يعتبر المجتمع هو المقياس بل يعتبر وفاء اللغة بحاجة الانسان الى التعبير والتفاهم وحفظ ونقل وتخليد آثاره الادبية والعلمية والفكرية والعقائدية هو المقياس .

فاللغة التي تفي بذلك لغة حية ولا يسمح هؤلاء العلماء لاممهم ان يغيروا ويبدلوا ويطوروا في لغتهم ، كيفما شاءوا ، بل لابد ان يكون التطور والتغير في اللغة يجري على اساس من قواعدها واساليبها اللازمة الاتباع ، وهؤلاء العلماء يربطون بين لغتهم وبين تراثهم العلمي والفكري والحضاري ، ويربطون بينها وبين عقائدهم ونظمهم وبينها وبين مشاعرهم واهدافهم في الحياة (2) .

نشاة اللغة الانسانية :

قد كثر القائلون والباحثون في نشاة اللغة الانسانية واصلها منذ اقدم العصور ولا زال علماء اللغات يدرسون ويبحثون ، ولقد عالجها فلاسفة

اليونان وعلماء اللغة العربية والاسلام واهتم بها الباحثون المحدثون من الاوربيين ومشى على آثارهم كثير ممن اخذ عنهم ، وخاصة العرب منذ القرن التاسع حتى اليوم وقد اختلفت وجهات النظر ونتج عن ذلك نظريات كثيرة منها : **ان اللغة الهام وتعليم من الله** : بمعنى ان الواضع للغات هو الله سبحانه وتعالى وقد بلغها الانسان بطريق الوحي والالهام او بايداع ذلك في طباعه .

1 ـ وذهب الى هذا الراي جماعة من المفسرين وقد حكى ابن جني عن بعض المفسرين في تفسير الآية « وعلم آدم الاسماء كلها » ان الله سبحانه علم آدم اسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومانية ، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم ان ولده تفرقوا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه ، واضمحل عما سواها لبعد عهدهم بها ، واذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده والانطواء على القول به (3) .

وعن ابن عباس انه كان يقول : علمه الاسماء كلها وهي هذه الاسماء التي يتعارفها الناس من دابة وارض وسهل وجبل وجمل وحمار واشباه ذلك من الامم وغيرها ، وعن مجاهد انه قال : علمه اسم كل شيء ، وقال غيرهما : انما علمه اسماء الملائكة ، وقال آخرون : علمه اسماء ذريته اجمعين .

2 ـ وممن ذهب هذا المذهب : الاصوليون ، قال الآمدي حاكيا آراء العلماء في ذلك: اختلف الاصوليون فيه، فذهب الاشعري واهل الظاهر وجماعة من الفقهاء الى ان الواضع هو الله تعالى ، ووضعه لنا متلقى من جهة التوقيف اما بالوحي او بان يخلق الله الاصوات والحروف ويسمعها الواحد والجماعة ويخلق له اولهم: العلم الضروري بانها قصدت للدلالة على المعاني ، محتجين على ذلك بآيات منها قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا » وهذا يدل على ان آدم والملائكة لا يعلمون الا بتعليم الله تعالى ، ومنها قوله تعالى : « اقرا باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق، اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ». واللغات داخلة في هذه المعلومات ومنها قوله تعالى : « ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان » ذمهم على تسمية بعض الاشياء من غير توقيف ، وقوله تعالى : « ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم » المراد به اللغات لا نفس اختلاف هيئات الجوارح من الالسنة . لان اختلاف اللغات ابلغ في مقصود الآية (4) .

3 ـ وذهبت طائفة من علماء اللغة الى مثل ما ذهب المفسرون والاصوليون حكى ابن جني في الخصائص عن استاذه ابي علي الفارسي المتوفى سنة 377 هـ قال : ان ابا علي رحمه الله قال لي يوما هي من عند الله واحتج بقوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » (5) .

وايد ابن جنى هذا الراي فقد جاء عنه في الخصائص : « واعلم فيما بعد انني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع ، فاجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التغول على فكري ، وذلك انني اذا تاملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك علي جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به امام غلوة السحر ، فمن ذلك ما نبه عليه اصحابنا ، ومنه ما حذوته على امثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده ، وبعد مراميه ، وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه ، ولطف ما اسعدوا به ، وانضاف الى ذلك وارد الاخبار المأثورة بانها من عند الله عز وجل فقوى في نفسي اعتقاد كونها من الله سبحانه وانها وحي (6) .

4 ـ وقال ابو الحسين احمد بن فارس : ان لغة العرب توقيف ، واستدل بالآية « وعلم آدم الاسماء كلها » وتفسير ابن عباس ومجاهد وغيرهما . ولكن ابو الحسين بعد ان اطلق كلامه هذا الاطلاق رجع فخصص ما عمم فقال : ولعل ظانا يظن ان اللغة التي دللنا على انها توقيف انما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد وليس الامر كذلك ، بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء ان يعلمه اياه مما احتاج اليه في زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علم بعد آدم عليه السلام من الانبياء نبيا نبيا ما شاء ان يعلمه حتى انتهى الامر الى نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فآتاه الله من ذلك ما لم يؤته احدا من قبله (7) .

ثم قال فان تعمل لذلك اليوم متعمل ، وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده ، ولقد بلغنا عن ابي الاسود ان امرأ كلمه ببعض ما انكره ابو الاسود . فساله ابو الاسود عنه فقال : هذه لغة لم تبلغك. فقال ابو الاسود يابن اخي لا خير لك فيما لم يبلغني .

وجاء انه لم يبلغنا ان قوما من العرب في زمان يقارب زماننا اجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه (8).

وقد كان في الصحابة رضي الله تعالى عنهم وهم البلغاء والفصحاء من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة او احداث لفظة لم تتقدمهم (9) .

قال الاستاذ مصطفى السقا بعد ان اورد اقوال اصحاب المذهب السابق : والذي يلوح لي ان اكثر ما استدل به اصحاب هذا المذهب ادلة دينية مع ان البحث نظري عقلي ، لا ديني فينبغي ان يستبعد منه الاستدلال بالآيات والاحاديث ونحوها ، على ان الآية الاولى التي هي معتمد القوم في الاستدلال ليست نصا في الموضوع وانما هي من قبيل الظاهر الذي يحتمل اكثر من وجه فقد يمكن تاويلها بان الله اقدر آدم على ان واضع عليها : قال ابن جني في الخصائص بعد ان اورد الآية وهذا لا يتناول موضع الخلاف: وذلك انه قد يجوز ان يكون تاويله : اقدر آدم على ان واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة فاذا كان ذلك محتملا وغير مستنكر سقط الاستدلال به وقد كان ابو علي رحمه الله ايضا قال به في بعض كلامه.

وليس يعنينا بعد ذلك من الادلة التي استدلوا بها غير كلام ابن جني وخلاصته انه راى في احكام اللغة ودقة تنظيمها ما جعله يعتقد ان ذلك الاحكام لا يتاتى من غير الله ، وهذا الدليل ان لم يكن صريحا في التدين فهو مقنع بقناع الدين . فان كثيرا من اعمال القدماء كالاهرام وغيرها آية في دقة الصنع فهل نقول ان صانعها هو الله من اجل اتقانها . على ان ابن جني نفسه بعد ان ذكر كلامه الذي سقناه ، لم يلبث ان شعر بما فيه من ضعف فاستدرك على نفسه بقوله ، كذلك لا ننكر ان يكون الله قد خلق من قبلنا وان بعد مداه عنا من الطف منا اذهانا واسرع خواطر واجرا حنانا فاقف بين الخلتين حيرا واكابرهما فانكفيء مكثورا ، وان خطر خاطر فيما بعد ، يعلق الكف باحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها. قال الاستاذ مصطفى السقا : اما صدر كلام ابي الحسين احمد بن فارس فهو تقليد لائمة الدين ، وقد كان الشيخ محافظا شديد المحافظة وقد عدل كلامه فضيق دائرة الدعوى ، واما انكاره على العرب انهم اجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه فيكفي في رده ما نقله غير واحد من ائمة اللغويين من ان رؤبة الحجاج وجرير وابن احمر الباهلي انفرد كل منهم بالفاظ لم يقلها غيره من العرب ، وانهم كانوا يرتجلون اللغة احيانا فهذا دليل على استمرار نمو اللغة حتى العصر الاموي والى انقضاء عصور الفصاحة العربية قبل ان يسيل سيول العجمة وتفسد السلائق باختلاط العرب بغيرهم الاختلاط الاكبر في العصر العباسي ، وليست الواضعة والاصلاح والتواطؤ لذى يريده القائلون به، الا ان يخترع اللفظ مخترع فيتقبله منه الناس ويستعملوه .

وخلاصة ما تقدم : ان القائلين بأن اصل اللغة توقيف ووحي يعوزهم الدليل العلمي لا الديني ولم نجد هذا الدليل فيما بين ايديهم من فروض واحتمالات .

وقد ذهب هذا المذهب من اليونانيين قديما الفيلسوف « هيراقليط » ومن الادبيين المحدثين طائفة على راسهم الاب «لامي» في كتابه «فن الكلام» ويستند الى نص الفقرتين 19،20 من الاصحاح الثاني من سفر التكوين وهما « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول ، وجميع طيور السماء ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الانسان فوضع آدم اسماء لجميع الحيوانات المستانسة ولطيور السماء ودواب الحقول » .

وهذا الدوليل فوق انه دليل ديني ليس فيه شيء من الاستدلال على اصل الدعوى وقد بان من هذا ومما تقدم ان هذا المذهب مجرد دعوى لا سند لها غير الآلة النقلية التي ليست نصا في الموضوع (10)

ولكن بعض العلماء توصل الى دليل عقلي ينهض قويا ليدعم الادلة النقلية وهذا الدليل : ان الانسان الاول لما كان نبيا فهو لابد له لكي يتفهم ما يوحى اليه ولابلاغ رسالته من لغة يستطيع بها تفهم وابلاغ رسالته ، والا تعذر عليه التبليغ وتفهم ما يوحى ، فالله سبحانه لما خلق ابا البشر واصل الخليقة آدم عليه السلام واسكنه وزوجه الجنة ، واوحى اليه هو وزوجته ان ياكلا من الجنة حيث شاءا وان لا يقربا

شجرة معينة وغير ذلك مما خاطبهم به . فلابد من غير شك انه علمهما معاني ما خاطبهما به وما اوحى به اليهما . بل الظاهر انه سبحانه علمهما ما يتخاطبان به فيما بينهما او مع الملائكة ، وذلك لاتمام النعمة عليهما في الجنة .

نعم من الجائز ان الله اودع في آدم وذريته الاولين قوة توسيع اللغة الاصيلة ثم تفرعت منها لغات بعد ذلك حسب التكتلات البشرية في اقطار المعمورة فكان لكل كتلة منهم لغتها ولهجتها ونغمتها الخاصة « 11 » .

المذهب الثاني :

ان اللغة تواطؤ واصطلاح : وخلاصة هذا المذهب ان الواضع للغة هو الانسان وان وضعه لها ، كان على مراحل ، ولقد ذهب الى هذا المذهب اكثر اهل النظر ، كما قال ابن جني في الخصائص . هذا موضع محوج الى فضل تامل ، غير ان اكثر اهل النظر على ان اللغة انما هي تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف «12» .

ولعل المراد باهل النظر في كلام ابن جني المتكلمون عامة والمعتزلة منهم خاصة ، وكان ابن جني واستاذه ابو علي الفارسي منهم كما ذكر السيوطي في كتاب المزهر .

1 – حكى ابو الحسن علي بن محمد الآمدي في كتاب « الاحكام » ان البهشمية وجماعة من المتكلمين ذهبوا : الى ان ذلك من وضع اهل اللغات واصطلاحهم وان واحدا او جماعة انبعثت داعيته او داعيتهم الى وضع هذه الالفاظ بازاء معانيها ثم حصل تعريف الباقين بالاشارة والتكرار كما يفعل الوالد بالولد الرضيع وكما يعرف الاخرس ما في ضميره بالاشارة والتكرار مرة بعد اخرى محتجين على ذلك بقوله تعالى : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » وهذا دليل على تقدم اللغة على البعثة والتوقيف (13).

2 – وزاد ابن جني على هذا المذهب توضيحا بقوله : ذهبوا الى ان اصل اللغة لابد فيه من المواضعة وذلك كان يجتمع حكيمان او ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا الى الابانة عن الاشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد سمة ولفظا ، فاذا ذكر عرف به ما مسماه ، ليمتاز عن غيره ، وليغني بذكره عن احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك اقرب واخف واسهل، من تكلف احضاره، لبلوغ الغرض في ابانة حاله ، بل قد يحتاج في كثير من الاحوال الى ذكر ما لا يمكن احضاره ولا ادناؤه كالفاني . وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد ، كيف يكون ذلك لو جاز وغير هذا مما هو جار في الاستحالة والبعد مجراه ، فكانهم جاءوا الى واحد من بني آدم فاوماوا اليه وقالوا انسان انسان انسان فاي وقت سمع هذا اللفظ علم ان المراد به هو الضرب من المخلوق ، وان ارادوا سمة عينه او يده اشاروا الى ذلك فقالوا : يد ، عين ، راس، قدم او نحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معناها وهلم جرا ، فيما سوى هذا من الاسماء والافعال والحروف ، ثم لك بعد ذلك ان تنقل هذه المواضعة الى غيرها ، فتقول الذي اسمه انسان فليجعل مكانه مرد والذي اسمه راس فليجعل مكانه سر ، وعلى هذا بقية الكلام ، وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية فوقعت المواضعة عليها لجاز ان تنقل ويولد منها لغات كثيرة من الرومية والزنجية وغيرهما وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الاسماء كالنجار والصائغ والحائك والبناء وكذلك الملاح . قالوا : ولكن لابد لاولها من ان يكون متواضعا بالمشاهدة والايماء «14» .

وعلى ذلك اختلفت اقلام ذوي اللغات ، كما اختلفت انفس الاصوات المرتبة على مذاهبهم في المواضعات ، وتوسط قوم بين المذهبين فذهب ابو اسحاق الاسفرايني الى ان القدر الذي يدعو به الانسان غيره الى التواضع بالتوقيف ، والا فلو كان بالاصلاح فالاصلاح عليه متوقف على ما يدعو به الانسان غيره ، الى الاصطلاح على ذلك الامر ، فان كان بالاصطلاح لزم التسلسل وهو ممتنع ، فلم يبق غير التوقيف ، وجوز حصول ما عدا ذلك بكل واحد من الطريقين « 15 » .

وخلاصة الرد على اصحاب هذا المذهب في ان قولهم : باجتماع حكيمين او ثلاثة فصاعدا ، ليضعوا لكل شيء سمة ولفظا ، ليس الا مجرد خيال وحدس وظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا ، ذلك الى ان القول بان الانسان وضع من اول الامر كلمات ذات مقاطع مركبة يجافي طبائع الاشياء اذ ان التدرج

والترقي من البسيط الى المركب ، هو القانون الملحوظ في نشأة الظواهر الاجتماعية التي من اهمها ظاهرة اللغة كما يلاحظ ذلك في نشأة لغة الطفل وتدرجها شيئا فشيئا .

واما الاستدلال بالآية « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » فليس فيه دليل ، لانه يجوز ان يكون التوقيف الذى قبل التواضع بالوحي من غير واسطة اللغة ، على اننا نقول ما قلناه آنفا ان الاستدلال بالنصوص الدينية فى مقام البحث العلمي لا يجوز ، ولذلك كله توقف جماعة من العلماء عن القطع باحد المذهبين فذهب القاضي : ابو بكر الباقلاني وغيره من اهل التحقيق الى ان كل واحد من هذه المذاهب ممكن بحيث لو فرض وقوعه لم يلزم عنه محال لذاته واما وقوع البعض فليس عليه دليل قاطع ، والظنون متعارضة يمتنع معها المصير الى التعيين ، ولذلك ايضا قال الآمدي والحق ان يقال ان كان المطلوب فى هذه المسالة يقين الوقوع لبعض هذه المذاهب فالحق ما قاله ابو بكر الباقلاني اذ لا يقين من شيء منها «16» .

المذهب الثالث :

ان اللغة نشات من الاصوات ويرى هذا ، العلماء الاوربيون المحدثون وسبق اليه علماء اللغة العربية قال ابن جني فى الخصائص : وذهب بعضهم الى ان اصل اللغة كلها انما هو من الاصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيح الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ــ صوت تيس الظباء عند السفاد ــ ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عند ذلك فيما بعد «17».

ويقول ابن جنى : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل « 18 » .

ويرى الاب « انستاس ماري الكرملي » نفس هذا الراي ويقول : الكلم وضعت فى اول امرها على هجاء واحد متحرك فساكن محاكاة لاصوات الطبيعة «19» .

وهذا المذهب قال به جماعة من المتاخرين مثل : « ادم سمث » و « روكلر ستيورت » ونقل عنهم ان الانسان كان يعبر عما فى ضميره بالاشارات والحركات ، حتى تكاثرت فجعل يحكي الاصوات التى يسمعها ، فكان اذا اراد ان يشير الى الغراب قال: غاق ولما وجد حكاية الاصوات هذه تقي بالمقصود اعتمد عليها فحصلت منها اصوات اللغة ثم طرا عليها التركيب والنحت والحذف والتغيير وما شاكل ، فتالفت سائر الفاظ اللغة عن كل خاطر يخطر فى النفس « 20 » .

وبمقتضى هذا المذهب كان الانسان اذا اراد استحضار معنى الحصان عبر عنه بصهيله « حم حم » او معنى الكلب عبر عنه بمحاكاة نباحه « عوعو » وهكذا واذا اراد الدلالة على معنى قطع الغصن او قصفه نطق بالصوت « قط او قص » او معنى سقوط الحجر على الارض نطق بالصوت « طق » لما بين هذه الاصوات ومعانيها من المناسبة وقد قال الخليل : كانهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا « صر » وتوهموا فى صوت البازي تقطيعا فقالوا « صرصر » ومن الطبيعي ان يكون التفاهم فى هذا الطور الاول بكلمات متقطعة لا بجمل ، وان هذه الكلمات كانت حكاية لاصوات « الاشياء او حكاية افعال ، اما الحروف التى تربط بين الكلمات فى الجمل فلم تكن نشات بعد « 12 » .

فانت ترى ان اللغة نشات بمحاكاة الانسان للاصوات الطبيعية وكانت المحاكاة فى اول امرها عضوية اي لم يقصد بها الاصوات الحاكية : التعبير عن المعاني المحكي عنها بها للاتصال بالغير ، ان الوظيفة الاجتماعية للغة لم تبرز فى اول الامر ، ثم وجد الانسان ان هذه الوسيلة مثمرة ونافعة وسهلة فى دلالتها على المعاني ، لهذا اصبح يطلق على الاشياء اصواتا هي حكاية لاصواتها الصادرة عنها للدلالة عليها وللاتصال بالغير ، فمعنى هذا ان استعمال الانسان للاصوات الحاكية اصبح استعمالا شعوريا اراديا هادفا ، وهنا يبرز العنصر الاجتماعي للغة : الرموز الصوتية ، ثم طرا على الاصوات الحاكية الدالة : التركيب والنحت والحذف والزيادة والقلب والابدال ليدل الانسان على معاني جديدة باصوات متمايزة وبعد ان التفت الى اهمية وفائدة الرموز الصوتية فى الدلالة على المعاني المصوتة وغير المصوتة ، المادية وغير المادية ، وكان هذا على مراحل ثم ان التصرف فى الاصوات الحاكية بالكيفيات المتقدمة يختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات

الاجتماعية ثم اقرت هذه الاصوات المتصرف بها مع الزمن ، فبعد كثير منها عن اصله وهو الصوت الذى حاكى به الانسان الاصوات الطبيعية وهكذا نشأت اللغة «22» .

ويستدل اصحاب هذا المذهب على صحته :

1 ـ بانه اقرب المذاهب الى البساطة التى تقتضيها حياة الانسان البدائي وتقتضي التدرج والتطور الذى تقضي به طبائع الاشياء والذى يلحظ فى نشوء الظواهر الاجتماعية عامة .

2 ـ وبانه توجد مناسبة ملحوظة بين الاصوات وما تدل عليه من معنى وهذا امر ظاهر فى لغات الامم الاولية .

3 ـ وبانه شبيه بنشأة لغة الطفل التى تتدرج من الاصوات الساذجة المستطيلة الى الاصوات المقطعة، ثم يتدرج الى الكلمات ذات المقاطع المركبة اذا كملت اعضاء النطق عنده .

ولا يرد على هذا المذهب من النقد ما ورد من المذاهب الاخرى السابقة ولذلك كان اقرب المذاهب الى العقل ون لم يوصل الى اليقين فى نشأة اللغات وقد ارتضاه ابن جنى فى كتابه الخصائص حين قال : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل .

والاصوات جمع صوت : وهو الجرس الذى ينتقل بالهواء الى حاسة السمع ، وتنقسم هذه الاصوات بحسب المصدر الى الذى تنبعث عنه الى قسمين : الاول الاصوات الطبيعية كصوت الريح او الرعد او النار، او جري المياه وانصبابها من علو الى اسفل ، وكاصوات الحيوان والطير والاصوات التى تسمع من الانسان فى احوال الانفعال كالانين والصراخ والعويل وكاصوات الفرح والطرب ونحو ذلك .

والثاني : الاصوات غير الطبيعية كاصوات الحركات والافعال التى يفعلها الانسان واصوات الآلات والادوات التى يستعملها كازيز الطائرات وجعجعة الطواحين وصوت المنشار فى الخشب ووسوسة النقود والحلي وصرير الابواب وصلصة الاجراس وما اشبه ذلك .

ويلحق بهذا القسم الاصوات البدائية التى اخترعها لدعاء الحيوان او لزجره ، وتنقسم الاصوات من حيث صفاتها الى اصوات ساذجة وهي التى تمتد فى استطالة بدون تقطيع كصوت زمارة الانذار عند انتهاء الغارات وكصفير الحيوان او الانسان من غير ترجيع ولا تكرير وهذا النوع ليس موضوع بحث اللغويين، والى اصوات متقطعة كالحروف التى يلفظها الانسان بالاعتماد على المقاطع والمخارج وكالاصوات الطبيعية التى سبقت الاشارة اليها فانها وان صدرت عن اشياء لا مقاطع لها كمقاطع الانسان فقد تمكن حكايتها بالالفاظ اللغوية الانسانية ذات المقاطع والحروف جرت عليها احكامها «23» .

وهناك من العلماء من يقرر ان اصل اللغة الاصوات الانفعالية للانسان التى كان يطلقها الانسان فى ظروف حياته البدائية وهي تختلف باختلاف حالاته النفسية والجسمية وباختلاف الظروف المحيطة به وكانت تلك الاصوات فى بدايتها عفوية لم يقصد منها الاتصال بالغير بل هي مجرد اصوات تصدر عنه كتعبير عن حالة من حالاته الانفعالية ، ولما ارتبطت هذه الاصوات بتلك الحالات الانفعالية نتيجة تكرارها عند تعرضه لها انتبه الى اهمية هذه الاصوات وفائدتها فاخذ يستعملها للاتصال بالغير وبهذا اصبح الصوت يخدم غرضا اجتماعيا وكان ان وسع مجال الصوت فى الدلالة على الاشياء تدريجيا وهكذا نشأت اللغة « 24 » .

المذهب الرابع :

يقرر كثير من العلماء المحدثين ان اصل اللغة يرجع الى جذور نفسية وفى هذا عدة نظريات :

1 ـ اصل اللغة رغبة الانسان فى ان يرى الواقع مرموزا اليه وفى ذلك نجد الاستاذ سابير Sapir وهو من المشتغلين بفلسفة اللغة لا يرى ان الحاجة الى التفاهم انشأت اللغة . بل يرى ان منشأها رغبة الانسان فى ان يرى الواقع مرموزا اليه او معبرا عنه بالرموز . ثم اكتشف مصادفة ان ذلك خير وسيلة للتفاهم « 25 » .

2 ـ اصل اللغة التعبير عن الحالات الانفعالية .

3 ـ اصل اللغة التعبير عن المعاني الكامنة وفى هذا يقول « ماكس » وهو من اشهر من قال بهذه

النظرية في القرن الماضي 1865 م « في الانسان قوة من شانها التعبير عما في ضميره بكلمات ملفوظة فكان الفكر اول ما يجول في دماغه كانه يقرع تلك القوة فتصون بالفاظ يفهم الفكر منها ، وهذه الالفاظ هي اصول اللغة ثم تقلبت عليها اطوار التعبير والتركيب فتالفت مفردات اللغة ، ولما تم الاستنباط درج عليها الاستعمال ، ولم يبق لهذه القوة من حاجة ، فاهملت وتضعضعت ولم تعد تحس كما يضعف السمع والبصر لقلة الاستعمال « 26 » .

من هذا يتضح ان اللغة انما نشات بسبب عوامل ودوافع نفسية بحتة ، ثم وجد الانسان الاول ان اللغة يمكن ان تحقق له فوائد كثيرة فانتبه لذلك وكان ان وسع من نطاقها وطورها لتخدم اغراضه التي يمكن ان تؤديها .

المذهب الخامس :

الاصل الاجتماعي وخلاصته : ان اللغة نشات بظهور البذرة الاولى لتكوين المجتمع ، وان الانسان كان مضطرا لان يتفاهم مع الآخرين لاسباب ودوافع كثيرة ، لهذا كان يطلق اصواتا في حالات مختلفة ، ثم اكتسبت هذه الاصوات صفة التباين النسبي حتى اصبحت لها دلالتها ، على معان معينة ، فاخذ يستعملها للتعبير والاتصال بالآخرين لتحقيق غرض ما ، فنشاة المجتمع هي سبب نشاة اللغة ، واللغة هي التي جعلت للمجتمع البشري وجودا انسانيا .

مراجع :

1 ـ انظر مجلة «النجف» العدد السادس من السنة الثانية ص 73 ـ العراق .
2 ـ المصدر السابق ص 85 ـ 86 .
3 ـ الخصائص لابن جني . الجزء الاول ص 39 ـ 40 مطبعة الهلال بمصر
4 ـ الاحكام في اصول الاحكام للآمدي ، الجزء الاول ص 105
5 ـ الخصائص لابن جني جـ 1 ص 39
6 ـ المصدر نفسه جـ 1 ص 45
7 ـ فقه اللغة للصاحبي ص 5 ـ بيروت
8 ـ المصدر السابق ص 6
9 ـ نفس المصدر السابق ص 7
10 ـ مجلة «المعرفة» العدد 3 من السنة الاولى ـ المملكة العربية السعودية .
11 ـ مجلة «النجف» العدد السادس من السنة الثانية ص 38ـ40 ـ العراق .
12 ـ الخصائص لابن جني جـ 1 ص 39 .
13 ـ مجلة «المعرفة»، السنة الاولى ، العدد 3 ـ السعودية.
14 ـ الخصائص لابن جني جـ 1 ص 41ـ42 .
15 ـ الاحكام في اصول الاحكام للآمدي جـ 1 ص 106
16 ـ مجلة «المعرفة» السعودية العدد 3 السنة الاولى .
17 ـ الخصائص لابن جني جـ 1 ص 44ـ45 .
18 ـ نفس المصدر السابق ص 45.
19 ـ دراسات في فقه اللغة ص 155 ـ العراق (الدكتور صبحي العالم)
20 ـ معجم «متن اللغة» جـ 1 ص 18 (الشيخ احمد رضا) ـ العراق .
21 ـ مجلة المعرفة السعودية الجزء الثالث السنة الاولى .
22 ـ مجلة «النجف» العراقية العدد 6 من السنة الثانية ص 50ـ51 ـ العراق .
23 ـ مجلة «المعرفة» السعودية السنة الاولى الجزء الثالث .
24 ـ مجلة النجف العراقية العدد السادس ص 51ـ العراق .
25 ـ اصول تدريس اللغة العربية ص 10 العراق .
26 ـ معجم متن اللغة جـ 1 ص 19 . والمزهر للسيوطي جـ 1 ص 36 .